الطريق

قصة الأستاذ نجيب محفوظ

بقلم : توفيق حنا

الطريق هو رمز الحضارة المصرية كما قال شفنجلر ، ونجيب محفوظ ـ عن همس الجنون حتى « الطريق » يسير فى طريق التعبير عن الشخصية المصرية ومحاولة الكشف عن الملامح والسمات أو القسمات التى تتميز بها النفس المصرية .. ولعل أروع لوحة قدم لنا فيها نجيب محفوظ تفاصيل حياة النفس المصرية فى نصف قرن انتظم ثلاثة أجيال هى لوحة « بين القصرين » .. هذه اللوحة الحائطية الرائعة الشاملة التى نذكر ونحن نشاهدها لوحات رمسيس الثانى فى معبد ابيدوس وفى معبد أبى سمبل .

بطل رواية الطريق ، آخر أعمال نجيب محفوظ هو « صابر » هو مصر كما كانت حميدة فى زقاق المدق هى مصر كذلك .. مصر فى لحظة عابرة من لحظات حياتها لحظة الحرب العالمية الثانية .. بينما صابر فى الطريق هو مصر .. مصر التاريخ .. مصر الروح .. مصر الكينونة الهائمة .. الباحثة عن ذات تتبلور بها وتتجوهر فيها .. مصر الوجود الباحث فى داب وفى جهد وفى صبر عن ماهية تحققه وتدفعه وتهب له التجدد والشباب والحيوية .. ولعل رواية الطريق أن تكون محاولة نثرية عصرية لحكاية أسطورة ايزيس واويزيس . ولعل صابر هو حوريس ولعل بسيمة عمران هى الصورة العصرية لايزيس .. ايزيس التى أفسدتها وشوهتها الحضارات المختلفة التى عاشتها ولم تهضمها ، ولعل هذا يفسر لنا لماذا عاشت بسيمة عمران فى الاسكندرية المدينة اليونانية التى كانت جزيرة يونانية وسط الحضارة المصرية الوسيطة .. كما يفسر لنا لماذا دعاها نجيب محفوظ امبراطورة الليل . الليل الذى أراه رمزا لهذه الحضارات التى تعاقبت على مصر منذ أن فقدت شخصيتها واستقلالها .. منذ استيلاء الاسكندر تلميذ أرسطو على مصر .. هذا الليل الذى استمر خمسة وعشرين قرنا ..

ولعل سيد سيد الرحيمى هو اوزيريس .. وهنا يقوم صابر (حوريس) بالبحث عن ابيه وذلك لان الانتماء هو الضريبة التى يدفعها مواطن القرن العشرين

.. اذ ليس امام هذا المواطن الا طريقان .. الانتماء او الانتحار .. ولعل اللامنتمي الذى اختاره كولن ولسون عنوانا لعمله الضخم تعبير عن أقصى درجات الانتماء .. كمأن الخاطىء فى الدين هو أقرب البشر الى الله . وصورة الزفاف تأكيد للمعنى التاريخى العميق الذى أراد نجيب محفوظ أن يلبسه محاولته الجبارة الجديدة « الطريق »

أما كريمة فهى امتداد ضرورى لايزيس (بسيمة عمران) اذ على الانسان أن يعانق الليل بكل كيانه وبكل وجدانه قبل ان يستحق أو يعيش النهار .. والليل هو المرحلة الرومنتيكية الضرورية التى تقطعها الروح فى طريقها الى واقعية النهار والعمل والواقع .

أما الهام فهى الفجر المبرعم فى وسط الليل الحالك ولهذا ارتبطت الهام ـ الفجر المنتظر ـ بالأب .. بالذات .. بالتاريخ .. بالمصير .. اذ أن اوزيريس هو أب لكل ما فى داخلنا من جمال وخير وسلام وكرامة وأمل .

ولعل الصحفى المخضرم هو توت اله الحكمة وهو صحفى ضرير .. ولعل العمى هنا اشارة الى انطلاق نور البصيرة .. وما أصدق ميخائيل نعيمة وهو يردد فى صوفية نقية : اغمض جفونك تبصر ..

يقول نجيب محفوظ وهو يقدم لنا هذا الصحفى المخضرم على لسان الاستاذ محمد الطنطاوى الذى أرسلته الهام للدفاع عن صابر :

« ألم تسمع عن الصحفى الذى كان يوقع عموده اليومى بامضاء الصحفى المخضرم .. طبعا فلقد انقطع عن العمل منذ عشرين عاما ، وهو جارلى بمصر القديمة وكان قديما استاذى بكلية الحقوق ومن أفقه من عرفت فى الشريعة »

وقال الصحفى المخضرم وهو يتحدث عن سيد سيد الرحيمى : « سيد سيد الرحيمى ، الوجيه الغنى الجميل ، وقد كان شابا فى الخامسة والعشرين ، أو نحو ذلك منذ ثلاثين عاما »

أما تفسير هواية سيد سيد الرحيمى الوحيدة وهى الحب فهى تشير الى هذه الحضارة التى نشرها أوزيريس ومعا الفن والغناء والزراعة ، بين سكان وادى النيل والتى نشرها بعد ذلك فى العالم كله .. ومع الحضارة وفر للناس ـ كل الناس الحرية والكرامة والسلام والخير .

ويحدثنا على برهان الصحفى المخضرم عن سيد سيد الرحيمى فى هذه الكلمات :

ـ « كان يتزوج كما كان يرافق ، كان يمارس الحب بشتى انواعه ، الجنسى والعذرى ، ولا يعتق ناضجة أو مراهقة ، أرملة أو متزوجة أو مطلقة ، فقيرة أو غنية حتى الخادمات وجامعات الاعقاب والمتسولات . »

وتحدث على برهان عن مهنة سيد سيد الرحيمى فقال : « كان ومازال مليونيرا ، لا عمل له الا الحب وكلما وقع فى مازق هاجر من مدينة الى مدينة مواصلا ممارسته لهوايته ».

والذى يؤكد ما ذهب اليه عن هويه سيد سيد الرحيمى انه اهدى الصحفى المخضرم قبل أن يسافر الى الهند .. كتاب « كيف تحتفظ بشبابك مائة عام » .. وهذا يشير الى تعليق المصريين بالخلود جسما وروحا ـ كما أهداه صندوقا فاخرا من الخمر-المعتقة والخمر بمعناها الصوفى تطلق الروح من سجن البدن وتجعله يتصل بالسماء .وانا أرى بعد هذا كله ، وأرجو أن يصفح لى القارىء الصديق هذا الاندفاع أو التطرف فى التفسير والفهم .. أرى أن هذه الرواية عبارة عن حلم كبير ، لعلها أروع الاحلام التى سجلها الادب الانسانى ، ولعلنا لو درسنا الطريق على أساس انه حلم لوجدنا التفسير الكامل لآلاف الرموز ولآلاف المشاكل والاشكالات الفنية .

يؤكد لى ان هذه الرواية حلم كبير هذا النص الذى جاء على لسان صابر وهو يتحدث الى الاستاذ محمد الطنطاوى المحامى : « الحكاية كلها كالحلم ، جئت من الاسكندرية للبحث عن ابى فوقعت أحداث غريبة نسيت فيها مهمتى الاصلية حتى وجدت نفسى أخيرا فى السجن .. » ولعل آخر جملة قالها صابر فى هذا الحلم تؤكد ارتماء الحالم فى احضان النوم وانتهاء الحلم الى الواقع النومى ..

« ليكن ما يكون .. »

ومحمد الطنطاوى هو الأخ الاكبر لاحسان الطنطاوى مدير ادارة الاعلان بجريدة « أبو الهول » وهى الجريدة التى تعمل بها الهام ، وكل قارىء لأدب نجيب محفوظ يعرف أن الاسم يلعب دورا ايجابيا فى الشخصية التى تحمله .. ما الحكمة فى أن تحمل الجريدة التى تعمل بها الهام اسم أبو الهول..وأبو الهول هو حلم متجسد ـ رأس انسان وجسم أسد ـ منتهى القوة مضافة الى منتهى الحكمة . والحكمة والقوة هما عنصرا الحضارة المصرية التى امتدت بدون انقطاع عشرة آلاف سنة ، فهى أطول الحضارات عمرا وأعمقها ، وأخصبها .

يبدأ هذا الحلم وصابر يناجى نفسه وهو فى السجن : « فى السجن وحدك ـ لا يزار من ليس له أهل .. والهام تخطر كالحلم وهى تعرف الآن الحقيقة ، شفيت ولا شك من الحب ولعنته .. فى سجن الموت نتحرر من علاقات الحياة كلها فلا تهمك الفضائح أنت متحرر من الكبرياء والخجل كما كنت وأنت فى الرحم ..»

وهذا البحث الذى قامت به مجلة الربيع مع نخبة من رجال الفكر . تحدث استاذ فى الجامعة عن الزواج غير المتكافىء باعتباره المسئول الاول عن الجريمة وقال كاتب يوميات صحيفة ان المسئول الاول هو الفقر ، هو الذى أغرى زوج كريمة الاول ببيعها الى زوجها الثانى وأن كريمة شهيدة لصراع الطبقات وفوارقها .. وناقش استاذ بالخدمة الاجتماعية نشأة صابر فى احضان تاجرة أعراض ورواسبها فى نفسه .. وقال استاذ علم نفس ان صابر مصاب بعقدة حب الأم وانه يمكن تفسير اندفاعه الاجرامى بأمرين مهمين فهو أولا وجد فى كريمة بديلا عن أمه فأحبها . وأن شعوره اصر على الانتقام لامه فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع فى مصادرة امواله كما صادرت الحكومة اموال أمه .. وقال شيخ من رجال الدين ان المسألة فى جوهرها

مسألة ايمان مفقود ، وان صابر لو بذل فى البحث عن الله عشر ما بذله فى البحث عن ابيه لكتب الله له جميع ما طمع اليه عند ابيه فى الدارين .. »

وفى هذا الجزء الاخير سخرية ورفض لكل التفسيرات التى يمكن ان يلجأ اليها النقاد فى تحليل وتفسير هذه الرواية .. ولعل نجيب محفوظ يريد فى وعى وفى مكر ان يدفع النقد الى طريق جديد فيه عمق وفيه جهد وفيه صبر .. يرفض نجيب محفوظ هنا كل التفسيرات النفسية والاجتماعية والدينية وكأنه يشير ــ مجرد اشارة ــ الى طريق آخر لفهم رواية الطريق .

هذه الرواية حلم كبير ــ بدأ فى سجن .. والنـدم والليل والكبت والحرمان جدران اربعة لكل سجين ولعل نجيب محفوظ أراد ان يساعدنا ان نرى فى طريقه حلما بأن أورد لنا هذا الحلم الرائع الذى عاشه صابر بعد ليلة حمراء مع كريمة .. ليلة حمراء أو بيضاء .. وانا اورد هنا هذا الحلم الرائع الذى عاشه صابر .

واقرر ان كل ما نلمسه فى هذا الحلم انما هو جزء من هذا العالم الحلمى الكبير الذى تعيش فيه الرواية كلها .. فهذا الحلم حلم فى الدرجة الثانية .. اى انه حلم داخل الحلم الكبير وهو مفتاح لهذا الطريق .. وانا اقرر هنا ان الطريق هنا بداية جديدة لمرحلة ثالثة فى أدب نجيب محفوظ من ناحية الشكل ومن ناحيـة المضمون ايضـا .

كان التاريخ فى روايات المرحلة الاولى . هو الثوب الذى البسه نجيب محفوظ الحاضر البشع الذى كان يعيش فيه فى الاربعينيات .. وهنا يعتبر الحلم هو الطرف الآخر للتاريخ ، هو الثوب الجديد الذى يدفع بالحاضر الى مستقبل أفضل وأوضـح وأعمق ، المستقبل الذى يقوم على الماضى وعلى الحاضر مثل قمة الهرم التى تعتمد على قاعدة تقوم على اساس عميق فى أرض مصر ..

ومن النصوص التى تؤكد أن الطريق حلم كبير ، هذا النص الذى جاء على لسان كريمة وهى تدفع صابر الى قتل زوجها العجوز خليل ابو النجا

« عيبنا اننا عند العجز نحلم »

ثم لا يجب أن ننسى أن التاريخ او زمن رواية الطريق هو الخريف .. وانالليل يلعب فى الطريق دورا كبيرا خطرا .. دور جسدته كريمة بجسدها ..

عندما نعجز عن ادراك الحرية والكرامة والسلام تندفع فى الليل الى الحلم . هذا النص الذى رددته كريمة يؤكد ان الطريق يقوم على منطق الحلم وعلى ابعاده وعلى هيمانه وانطلاقه بعيدا فى الواقع وفوق الواقع وذلك بهدف تحرير هذا الواقع والسيطرة عليه .. يقول نجيب محفوظ وهو يتحدث عن صابر بعد ان حلم هذا الحلم الذى سوف أورده بنصه بعد قليل : (وتعددت احلامهلدرجة اثارت انزعاجه وامتعاضه ، ويستيقظ فيلازمه شعور بالتعب والكدر واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخنق العالم .. وكثيرا ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصـاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل أن تنفجر مرعدة مزبدة ، وفى الحلم يطل عليه وجه أبيه بالرغم من أن العشق أصبح المحور الذى تدور عليه حياته ، العشق الذائب فى احضان الظلمة ..

وهو يكره الاحلام لانها ترجعه الى فترة ماضية من حياته الح فيها عليه الصرع حتى أوشك أن يهلكه . وطاردته ذكريات المرض طويلا بعد شفائه منه فكان الصرع من أسباب اندفاعه فى طريق اليأس والقوة كسمعة أمه سواء بسواء ، اما الصراع الذى يخوضه فى الاحلام فيورثه عقب اليقظة انهاكا وحزنا فيمتلىء بافكار الفناء ، واذا ترامى اليه الآذان من الجامع القريب وهو على تلك الحال تضاعف حزنه .. »

هذا النص كان التعليق على الحلم الكبير الذى أسجله هنا وأضعه امام النقاد وعلماء النفس لمحاولة تفسيره :

« قالت كريمة

ـ اقترب الفجر ووجب الذهاب ..

« ورجع الى سريره بعد أن أغلق الباب وعناقها لاصقا به كالعبير ... واستلقى فى ارتياح عميق فسرعان ما زحف عليه التخدير .. »

« الحـلم »

« وقال انه يشعر لاول مرة بأنه » يحتمل ان يستغنى عن ابيه ولكن عندما لوح له الساوى بسماعة التليفون هرع اليه كالريح ثم هتف بجزع :

ـ الو .. ؟

واذا بصوت جاء يسأل :

ـ صابر سيد صاحب الاعلان ؟

ـ نعم انا هو

ـ انا سيد سيد الرحيمى فماذا تريد ..

ـ لا بد من مقابلتك ..

ـ انا منتظرك بمحل فتركوان ، هل تعرفه ؟

ـ نعم ساكون عندك فى خلال دقائق

واجال عينيه فى المحل حتى رأى رجلا جالسا الى مائدة الهام لم يشك لحظة فى انه صاحب الصورة بل انه لم يكد يتغير فى مدى الثلاثين عاما ، عدا انتشار المشيب فى سوالفة وانطباع تجاعيد غير ملحوظة الا عند التدقيق حول فيه وعند عينيه . ونظر صوبه فى رهبة حقيقية اذ وجده اضخم وافخم من اى خيال .. واتجه نحوه حتى حدس الرجل شخصيته فنهض لاستقباله مصافحا وصابر لا يحول عنه عينيه .

ـ صابر افندى

ـ نعم ، وسيادتك صاحب الصورة بلا ريب ..

وجلسا والرجل يقول :

ـ انت شاب فى عز الشـباب ، ويخيـل الـى أننى رايتك قبل الآن ؛ أيـن يا ترى ...؟

ـ أنا فى الاصل من الاسكندرية ، وانزل الآن فى القاهـرة فى شارع الفسـقية وامشى كثيرا فى شارع كلوت بك وميدان المحطة وقد جلست اكثر من مرة الى هذه المـائدة .

ـ لا شك انى رايتك فى احد هـذه الاماكن ، فانا ازور الاسكندرية من آن لآن وامر كل يوم بميدان المحطة ، وليس نادرا ، ان أجلس فى هذا المحل ..

فهتف صابر :

ـ هذا اعجب ما سمعت ، ولو اننى لا اذكر اننى رايتك من قبل الا بالتخيـل ولكن متى اطلعت على الاعلان :

ـ منذ اول يوم ..

ـ حقا ولكنك لم تتصل بى الا اليوم !

ـ بلى .. ذلك أن الاعلان يدل على أنك لم تستطع الاهتداء الى الطريق العادى على حين اننى رجل معروف جدا ولا أيسر من الاهتـداء الى بيتى او مكان عملى ، لذلك تجاهلت نداءك ، ولما لمست الحاحك لم ار بدا من الاتصال بك ..

. هذا عجيب حقا فانى لم أصادف أحدا يعرفك ، ولا رقم لك فى الدليل .

ـ لندع ذلك الآن وخبرنى عما تريد .. :

ـ الحق اننى اريدك انت .. ولكن الا تلاحظ شيئا يا سيدى ...

ونظر فى وجهه متوقعا ان يلاحظ الشبه بينه وبين الصورة ولكنه خيب ظنـه فقال بجزع :

ـ انظر الى وجهى ..

ـ ماذا فى وجهك ؟

وهنا سمع صوتا يهمس :

ـ استاذ صابر ..!

التفت نحو الصوت فراى الهام واقفة . نهض فصـافحها ثم هم بتقديما الى أبيه واذا بالرجل يمد لها يده قائلا :

ـ الهام .. كيف حالك ..

وقبلت الفتاة يده باحترام فهتف صابر :

ـ اذن انت تعرفينه .

فسأله الرجل دون اكتراث لدهشته :

ـ خبرنى متى عرفت ابنتى ؟

فصاح صابر ابنتك ... رباه

وبسرعة غير متوقعة غادرت الهام المكان قبل ان يستطيع منعها وقال الرحيمى بهدوئه الذى لزمه طول الوقت .

ـ كثيرا ما اسمع كلاما لا معنى له ، ومنه ما يمسنى شخصيا ولـكن لا اكترث لذلك البتة ،خبرنى الآن عما تريد ؟

جلس صابر فى حالة من الانحلال التام وبحركة آلية قدم له الصورة الجامعة بينه وبين أمه التى راى نصفها فى الاعلان ووثيقة زواجه بأمه وشهادة ميلاده وشهادة تحقيق الشخصية .. ونظر الرجل فيها واحدة بعد اخرى ، وبحركة سريعة حاسمة راح يمزقها اربا .. صرخ صابر وانقض عليه يريد أن يمنعه ولكن بعد فوات الاوان امسك بثنية الجاكته وصاح به ..

ـ انت تمحو وجودى محوا فالويل لك ..

فقال الرجل دون ان يخرج عن هدوءه المثير :

ـ ابعد عنى ، لا ترنى وجهك .. دجال كأمك ، ولا شأن لى بك.. اذهب

ودفعه عنه فتقهقر حتى اصطدمت راسه بحافة البوفيه .

.. ..

(انتهى الحلم)

.. واستيقظ .

فتح عينيه وهو يتنفس بصعوبة فراى الحجرة الاثرية على ضوء النهار الذى ينضح به الشيش . وأدرك انه عار تماما تحت الغطاء « فتذكر الليلة المنطوية بجميع ملابساتها وتنهد بارتياح ولكنه شعر لشدة انفعاله بالحلم باعياء وحزن ..»

وفى عناية فنية وفى اناقة شكلية مهد نجيب محفوظ لهذا الحلم بهذيان صابر وهو سكران وهو يذكر ايام النبى دانيال والأسكندرية .. يقول صابر فى لحظة سكره ونشوته :

« وماذا بعد ذلك الانتظار والجرى وراء المجهول فى الظلام » ويدفعه السكر وتنطلق به النشوة وهو يسير تحت البواكى المقطبة ـ الى امه ـ « وامه كانت تدخن النرجيلة وتحكم الرجال .. وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة .. قالت له افعل ما تشاء ولكن لا تسرف فلا عدو لنا الا الفقر .. وقالت له اعشق كل يوم أمرأة ولكن لا تجعل لاحداهن من سلطان عليك ..»

وفى قمة سكره وهذيانه يردد (ولكن أين سيد سيد الرحيمى) وهتف بصوته الملىء .. يا رحيمى .. ثم راح يدندن بالاغنية الاسكندرانية « ما تبطل الشقاوة وتعال عندنا .

كان صابر فى تلك الليلة التى بدات بالسكر وانتهت بالحلم قد اشترى زجاجة كونياك من بقالة الحرية وشرب وأكل وسكر ثم عاد الى بيته فى منتصف الليل . . وبعد منتصف الليل وبعد ان دخن سيجارة فى حجرته الاثرية وبعد أن نام جاءت كريمة .. وبعد كلام وحديث وما بعد الحديث .. من جنس واغواء ودفع الى الجريمة ، بعد هذا كله أحاطها بذراعيه ولكنها تزحزحت الى حافة السرير قائلة :

ـ اقترب الفجر ووجب الذهاب ..

ثم كان الحلم الذى سجلته لك هنا .

وجاءت ليلة الحلم بعد نهار قضاه فى البحث عن شارع التلبانة رقم ١٥ بشبرا .. وبعد أن حرق ساعات النهار فى البحث والسؤال عاد الى الفندق واذا بصاحب هذا العبث التليفونى يطلبه مرة أخرى ليقول له :

ـ حقيقة انك حمار

ودفعته كآبة مساء الخريف وخيبة الامل الى بقالة الحرية . يقول صابر وهو يناجى نفسه وهو يتذكر ملهى الكنار الليلى :

اين الله حقا ؟ هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط .. ولم تشده الى الدين علاقة تذكر .. ولا شهد النبى دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش فى عصر ما قبل الدين... وفى فندق القاهرة احتل صابر الغرفة ١٣ ودفعته القاهرة ورقم ١٣ الى كريمة ودفعته كريمة الى الجريمة .. ثم الى السجن اخيرا ومن السجن .. سجن البحث عن أبيه وسجن فقده لامه .. وسجن الفقر والوحدة والضياع الروحى والحضارى .. من هذا السجن انطلق الحلم الكبير .. الطريق..

وعندما غادر صابر الاسكندرية « تعلق بصره بالاسكندرية والقطار يزج الارض مبتعدا رآها مدينة هائلة من السحب وهواء باردا معبقا بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الانيقة شبه الخالية .. وودعها هى وامه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة واحدة طويلة ساخنة ..

وناجى صابر نفسه ـ وكم كان يناجى نفسه ـ قبل ان يصل الى القاهرة .. وانت اليوم وحيدا بلا اهل ولا أصدقاء كأنك من جنس غريب ..

وعندما وصل الى القاهرة هاله الزحام فى محطة مصر فالح عليه شعوره بالوحدة وبحث عن فندق رخيص حتى وجد فندق القاهرة فى شارع الفسقية ذى البواكى وهو بمبنى قديم ترابى الجدران مكون من اربعة ادوار وعليه فوق السطح وذو باب مرتفع مقوس الراس كوجه باك يفتح على مدخل مستطيل ينتهى الى مدخل السلم ..

وقدم لنا نجيب محفوظ مع فندق القاهرة هذا الشحاذ الذى رآه وهو يندفع الى الفندق وقد جذبته فتاة فى عز الشباب كانت تجلس الى مكتب الفندق وكان الشحاذ يردد :

ـ طه زينه مدبحى صاحب الوجه المليحى

النصارى واليهود

اسلموا على يديه

هذا الشحاذ هو النغمة السائدة فى حلم الطريق وهو يذكرنى بالشيخ درويش وبالشيخ متولى عبد الصمد وبالشيخ على الجنيدى .. وهؤلاء جميعا يمثلون عندى توقيع نجيب محفوظ على أعماله الفنية .

وحلم الطريق يبدأ بالقرافة بعد أن خرجت بسيمة عمران من السجن .. والسجن يلعب دورا ايجابيا خطيرا فى رواية الطريق .. اقترح محامى من معارف صابر وهو يساعده فى البحث عن ابيه ان يسأل عنه فى السجون .. وعندما رأى دهشة صابر من اقتراحه قال له :

ـ ولماذا لا .. !! السجن كالجامع مفتوح للجميع ، واحيانا يدخله الانسان لنبل فى اخلاقه لا اعوجاج ..

ويلعب التقابل بين الحياة والموت دورا ايجابيا فى رواية الطريق فبينما تموت

بسيمة عمران وصوت القرآن يتلى فى غرفة المرحومة يتوافد المدعوون فى شقة الجيران وتترامى أنغام الموسيقى .

ويقول صابر : والآن اين هى الحقيقة واين الحلم ، أمك التى ما تزال نبراتها تتردد فى أذنك قد ماتت ، وابوك الميت يبعث فى الحياة .. وانت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام ...

يبدأ حلم الطريق .. بعد أن قالت بسيمة عمران لابنها صابر بعد أن عادت الى البيت الذى كانت قد اعدته لابنها وبعد أن قضت فى السجن خمس سنوات .

ـ أمك انتهت يا صابر .

وقالت له أيضا بعد أن حدثته عن أبيه وبعد أن اعطته شهادة الزواج وصورة الزفاف

ـ شىء يحدثنى بأنه حى .. وبأنك اذا لم تيأس او تتوان فسوف تعثر عليه .

ثم أغمضت عينيها بعد ذلك وغمغمت « انى تعبة جدا » واستيقظ حوالى التاسعة من صباح اليوم التالى بعد ليلة سهاد ممزقة بالفكر . وذهب الى حجرتها ليوقظها فوجدها ميتة .

ماتت بسيمة عمران .. ودفع الموت صابرا الى هذا الحلم الطويل الذى يبدأ بالقرافة .. يبدأ الحلم بهذه الصورة الصائتة « تتردد من بعيد صوت كالعواء ثم دخل الحجرة طابور من العميان فطوقوا القبر فى نصف دائرة ثم جلسوا القرفصاء يشعر بأعين كثيرة تحدق فيه أو تسترق اليه النظرات . لفط النساء ورائحة التراب وعرق الرجال وانفاسهم الكريهة .. والتربى ومساعده والسقاء وترتيل العميان كل هذا مهد الى هذا الحلم ..

الموت والليل والسجن هى عناصر هذا الحلم .. الموت فى البداية .. والليل الذى دفعه الى الجريمة .. وهو الطريق .. والسجن فى النهاية .. وفى السجن تجوهر الموت وتبلور الليل ... ورأى صابر ـ بلا واعيته أن يبحث عن رمز يتخلص به من الموت والليل والسجن فكان الاب .. سيد سيد الرحيمى .. رمز الكرامة والحرية والسلام ، والتثليث هنا رمز لحضارة مصر .. ولتاريخ مصر .. وهذا الاسم المثلث سيد سيد الرحيمى يؤكد امامنا سيادة الاصل العريق الذى ينتهى اليه صابر ـ ونحن كلنا صابر ...

فاسم الرحيمى يشتق من الرحمة والرحمة انما جاءت من الرحم وهى تجسد علاقة الانسان بذوى الارحام وتأكيد معنى الرحمة انما هو تأكيد للعلاقة الحميمة بين الآباء والابناء .. وفى قمتها علاقة الانسان بأرضه وتاريخه وبأبناء بلده ..

والواقع أن المصريين جميعا مصابون بمرض تاريخى .. فنحن جميعا نبحث عن هذا الاب .. عن هذا الاصل .. عن هذا التاريخ .. الذى ننتمى اليه .. نحن جميعا نعانى من عقدة الاصل .. أو بفقدان الوعى التاريخى .. نحن نبحث عن جذور .. ونحن رغم حضارتنا العريقة الاصيلة نعيش عالة على حضارات عاشت

عالة على حضارتنا منذ قيامها نحن مضمون غنى يبحث عن الشكل ولهذا يكثر الحديث فى هذه الايام عن الشكل والمضمون . فهذا الحديث يثبت ويؤكد هذا الانقسام وهذا الفصام .. فنحن نعيش فى آن واحد وهو الحاضر فقط .. ولما كان الحاضر لحظة من لحظات نهر متدفق من زمان يضم الماضى والحاضر والمستقبل فى كيان واحد .. كان العيش فى حاضر منفصل عن ماضيه يشكل أزمة فى الوعى وأزمة فى الروح وأزمة فى التعبير وأزمة فى الثقافة ، وبكلمة واحدة يشكل هذا المرض التاريخى أو عقدة الاصل كما حاولت أن ادعوه ..

ولما كان نجيب محفوظ يحاول أن يعبر بصدق وبعمق عن لحظتنا هذه فانه حاول بعد أن قطع هذا الطريق الطويل الذى بدأ بترجمة كتاب عن مصر القديمة عام ١٩٣٢ حتى رواية السمان والخريف أن يسجل هذا المرض التاريخى فى حلم أسماه الطريق .. وجعل موضوعه البحث عن الاب، وجعل اسم الابن هو صابر.. والصبر هو السمة البارزة للنفس المصرية .. وجعل اسم هذا الاب سيد سيد الرحيمى ، المثلث الرحمة الذى يجسد للابن الكرامة والحرية والسلام .. وكلنا صابر .. صابر الباحث عن أبيه .. ولهذا اعتبر أن أروع حركة سجلها الحلم الذى سجلته هنا هى حركة تمزيق الصورة الجامعة بين الاب والام ووثيقة زواج الاب والام وشهادة ميلاد صابر وشهادة تحقيق الشخصية .. مزقها سيد سيد الرحيمى لان هذه الاشياء كلها لا تقيم هذه الصلة الحميمة التى يصل بها صابر الى الحرية والكرامة والسلام..

الطريق قصيدة ملحمية تقدم لنا حلما واعترافا ومحاولة عبقرية للبحث عن مخرج وعن حل وبهذه الرواية تنتهى المرحلة السرابية التى عبرت عنها رواية السراب وتبدأ مرحلة جديدة واضحة كل الوضوح .. مرحلة الطريق الى اكتشاف انفسنا وفى اختيار الطريق اشارة لنا بالعودة الى تاريخنا العملاق الذى يبدأ بعصر ما قبل الاسرات حتى الآن .. ومحاولة توضيحه لانفسنا ولابنائنا وبناتنا فى كل المراحل التعليمية عن طريق وسائل النشر الجماهيرية .. علينا ان نكشف تيار هذا التاريخ المتدفق حتى يمكننا أن نعيشه ونعيش به كما نفعل مع نهر النيل سواء بسواء..

ويوم أن نعرف انفسنا بانفسنا فسوف نجد مع صابر الحرية والكرامة والسلام وسوف يلتئم الماضى والحاضر مع كل حى ينطلق فى دينامية نحو مستقبل .. والا فسوف نصبح مثل هذا الشحاذ الذى فقد كل شىء من قوة ومال وبصر فتسول ....

وهذا الوعى الذاتى سوف يحررنا من الخوف والجوع والماضى والموت .. وحتى لا نعيش فى ذل الرغبة الجائعة وذل البحث الخائب .. وذل الخوف من الذل ..

علينا أن نجد الطريق الى قدس أقداسنا .. وهو طريق يريد منا كل الشجاعة وكل الصبر وكل الايمان وكل الثقة .. وعلينا ان نتخذ من كل عقبة فرصة للانتصار وللوصول الى هذا الهدف العظيم وللوصول الى الوعى الذاتى لنرى الطريق الى العمل لانفسنا ومع الآخرين .. ولهم ..